مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 00، عدد رقم: 00، شهر 2020، صص: 07- 33

تاريخ الاستلام(2020/00/00) تاريخ القبول (2020/00/00) تاريخ النشر (2020/00/00)

البيان من النسق الأصولي إلى النسق البلاغي

The statement from the fundamentalist format to the rhetorical format

ملخص:

ترمي هاته الدراسة إلى البحث عن التعامل المنهجي بين مباحث علوم اللغة العربية والشرعية لإيجاد نسق معرفي واحد، ولما كان البيان المثبت الأول لكل هاته العلوم باعتباره منظومة معرفية في الدرس البلاغي وقبلها الدرس الأصولي الذي صاغ المفهوم، حق لنا أن تنطلق منه وكانت البداية مقر الإمام الشافعي وأهمية البيان في الدرس الأصولي والأثر الذي أداه في البلاغة العربية، وبعد هاته تم توضيح مفهوم البيان في الدراسة البيانية ممثلة في الجاحظ.

كلمات مفتاحية: البلاغة، البيان، النسق، أصول الفقه الشافعي، الجاحظ.

Abstract:

This study aims to research the systematic interaction between Arabic Language Sciences and Legitimacy to create a single cognitive format As the first proven statement of all these sciences as a knowledge regulator in the rhetorical lesson and accepted by the fundamentalist lesson that formulated the concept, We have the right to begin with the headquarters of Imam El Shafei and the importance of the statement in the fundamentalist lesson and the impact it has had on Arab rhetoric and then the concept of the statement was clarified in the graphic study represented in Al-Jahlat.

Keywords: Eloquence, statement, format, origins of Shafi 'i jurisprudence, hem.

1. مقدمة:

نشأت العلوم العربية سواء الشرعية منها، أو اللغوية. مرتبطة في بدايتها الأولى بالقرآن الكريم بهدف تحقيق مقاصد البيان في الكتاب والسنة النبوية. وذلك ما يعكس النسق الواحد لهذه العلوم تبعا لوحدة الأصل والمصدر. مما يفسر نظامها وتكاملها المنهجي؛ تحقيقا لمقصد الغاية ذاتها، فلم تكن مهمة أصول الفقه إلا الكشف عن القواعد الكلية التي تستنبط بها الأحكام الشرعية. من النص القرآني والحديث النبوي الشريف، وإلى جانب ذلك تعدد المباحث اللغوية في الدرس الأصولي، ولعل أهمها كان مبحث البيان. لذلك كان لازما على الدارس النظر في اللغة التي نزل بها هذا النص القرآني لفهم مقاصده.

ومن ثمة كان البيان القرآني المنبت الأول لكل العلوم، التي كانت منذ بدايتها متصلة ومتسقة في ظفيرة واحدة. وعليه ستحاول هذه الدراسة البحث عن التكامل المنهجي بين مباحث علوم اللغة؛ لإيجاد نسق معرفي واحد. ولما كان مفهوم البيان أول التواليف في تلك الظفيرة. حُقَّ لنا أن ننطلق منه. والبداية ستكون مع من كان له السبق في وضع اللبنات الأولى لنظرية البيان العربي، وهو "الإمام الشافعي" رحمه الله. نظرا للأثر الكبير للأصوليين في الدرس البلاغي؛ حيث نجد المباحث البلاغية مبثوثة في دراساتهم؛ كالخبر، والإنشاء، والحقيقة، والمجاز، وغيرها. وسنقف بعد ذلك على دلالة مفهوم البيان في الدراسة البيانية ممثلة في الجاحظ باعتباره مؤسس علم البيان العربي. من خلال المنهج الذي اتبعه في كتابيه "البيان والتبيين" وكتاب "الحيوان" ودعوته إلى النهج البياني، فكان نسق الجاحظ بداية تحول البيان العربي من السياق الديني إلى دائرة الأدب بكل أصنافه وفنونه.

وعلى هذا الأساس سنحاول معالجة الموضوع، انطلاقا من إشكالية محددة، مفادها: ماهي دلالة مفهوم البيان باعتباره منظومة معرفية في الدرس البلاغي، وقبلها في الدرس الأصولي الذي صاغ المفهوم؟ وماهي مناطق الالتقاء بين الدرس البلاغي مُمَثَّلاً في الجاحظ، والدرس الأصولي مُمَثَّلاً في الشافعي؟

ولمحاولة الإجابة عن هذه الإشكالية، ستنتظم دراستنا في ثلاثة مباحث؛ سيتناول أولها نشأة البيان عند المتكلمين بإبراز الدعائم الأولى التي قام عليها بفضل رسالة "بِشر بن المعتمر" الذي رسم الطريق لمن جاء بعده. وسنتطرق في المبحث الثاني إلى مفهوم البيان عند الأصوليين من خلال الإمام الشافعي، وسنبرز من خلاله القواعد الكلية التي تعد أساس النظرية البيانية. أما المبحث الثالث فخصصناه لمفهوم البيان عند الجاحظ، وللمنطلقات

الفلسفية والعقائدية التي ساهمت في بلورة هذا المفهوم عنده، وكذا الأنساق المعرفية لنظرية البيان الجاحظية. وسنختم الدراسة بخلاصة تركيبية توضح مدى التكامل المنهجي بين الدرس الأصولي والدرس البلاغي. بوصفهما خطابا بيانيا يشكل نسقا معرفيا واحدا. كما سنخلص إلى بيان الحد الذي يمكننا من الكلام عن قراءة نسقية للبيان العربي عند كل من الشافعي، والجاحظ.

2. العرض

1.2 البيان العربي عند المتكلمين:

شُغِلَ النحاة واللغويين بمسائل البيان والبلاغة. التي أنتجت الحقل المعرفي العربي الذي تمخضت عنه علوم عربية خالصة؛ من نحو، وفقه، وبلاغة، وبيان، وهلُمَّ جرا. وإلى جانب علماء النحو واللغة والبلاغة. كان لعلماء الكلام إسهام في بلورة هذا الحقل المعرفي، وعلى رأسهم المعتزلة الذين كانوا مهيئين تاريخيا لدراسة النص القرآني، دراسة تقوم على الحجة والدليل، فاستفاد البيان العربي من ذلك استفادة كبرى. حيث كانت بيئة المعتزلة خاصة، والمتكلمين عامة. إحدى البيئات الرئيسية التي نشأ في ظلها التفكير البلاغي.[1] ففي أحضانهم نشأ علم البيان، وبأيديهم وضعت الأسس والقواعد الأولى له، ومما ساعدهم على ذلك ثقافتهم في الفلسفة والمنطق، والكلام، فقاموا بتنظيم أبحاث هذا الفن والغوص في وسائله وربطه بنفسية المتكلم والمخاطب معا، ومراعاة ما يقتضيه كل حال من المقال.[2]

وقد أجمع كثير من الدارسين أن خير ما أُثرَ عن المعتزلة في فن البلاغة والبيان العربي. صحيفة بشر بن المعتمر المتوفى سنة 210هـ والتي أوردها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كاملة غير منقوصة؛ وذلك لاهتمامه الشديد بها.[3] " ولأول مرة نجد متكلما كبشر بن

---

[1]- يُنْظَر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط3، 2010م، ص:35

[2]- يُنْظَر: محمد نايل أحمد، البلاغة بين عهدين في ظلال الذوق الأزلي وتحت سلطان العلم النظري، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1994م، ص: 40

[3]- يُنْظَر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط9، 1965م. ص: 41

المعتمر. يفصل القول في البيان وطرائقه تفصيلا بالغا، ويرسم الطريقة للمتكلم في صحيفته المشهورة ..."[1]

وما يُحْسَبُ لهذه الصحيفة أنها نهج جديد. اتسم بالعمق والجدة، وكشف عن مكنونات النفس، ووصف طريقة البيان، وأحوال الخطاب، ولائم بين اللفظ والمعنى، وتوافق الألفاظ، وكيفية مخاطبة العامة بمعاني الخاصة، وهذا أول كلام في رعاية مقتضى ومراعاة المقام.

وهذه الرسالة على الرغم من إيجازها، إلا أنها استطاعت وضع الدعائم الأولى التي قام عليها علم البيان. فكانت بمثابة الدستور الأول لأصول البلاغة العربية التي استعان بها بعد ذلك الجاحظ ، وتطبيقها على كل أساليب العربية بعد توضيح وشرح دقيق لنصها.[2]

ولايمكننا هنا التفصيل في كل ما جاء في الصحيفة؛ لأن ذلك سيطول. وإنما تمت الإشارة إليها لأنها باكورة الدرس البلاغي والنقدي. والتي تناولها الدراسون حتى بعد الجاحظ بالدرس والتحليل؛ لما حملته من شروط للفصاحة ومطابقة الكلام لما يقتضيه الخطاب، وغيرها من المسائل البلاغية والنقدية المهمة.

2.2. مفهوم البيان عند الشافعي ونسقه المعرفي:

جاء علم أصول الفقه خادما لبيان القرآن الكريم، وضابطا لأحكامه وفهم معانيه مقاصده. كما أن البلاغة العربية قامت على الدراسة اللغوية لهذا النص. سواء في علم البيان أو علم المعاني، وبدأت كاتجاه مبكر في علم أصول الفقه الذي أولى الأهمية لضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى. وجعلها مدخلا لدراسة النص القرآني، ونص الحديث. وظلت البحوث اللغوية واحدة من أبرز السلطات المرجعية في علم الفقه، وهو الذي دفع أحد الفقهاء للقول أنه ظل يفتي الناس في شؤون دينهم لمدة ثلاثين عاما معتمدا على كتاب سيبويه في نحو اللغة اللغة العربية.[3]

وتطورت بعدها الأبحاث البيانية، وكل المعطيات التاريخية تثبت أن دراسة البيان إنما تم تدشينه بصورة منظمة في اللغة النحو والكلام. وبعبارة أدق في الأبحاث والمناقشات

---

[1] - محمد نايل أحمد، البلاغة بين عهدين، ص: 40

[2] - يُنْظَر: المرجع نفسه، ص: 41

[3] - يُنْظَر: عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001م، ص: 322

التي ستسمى فيما بعد بهذه الأسماء. التي كان يستقطبها الدرس الإعجازي في المقام الأول، وبعدها الدراسات البلاغية للشعر الجاهلي. وتطورت بعدها الأبحاث البيانية بعد عصر التدوين لتشمل الخطاب العربي ككل؛ من شعر، وخطابة، وفنون القول كلها. واتجهت الدراسات بصورة أوضح للتقعيد والضبط والتقنين نتيجة للمجادلات المذهبية داخل الدائرة البيانية نفسها.[1]

ولعل النقلة التي وقعت من الاهتمام بالدرس الإعجازي إلى بلاغة النص الشعري. مرت بالجسر اللغوي نفسه، وهذا ما سنلاحظه مع فضل الدرس اللغوي والنحوي على نظرية البيان عند الشافعي.

1.2.2. فضل علماء النحو واللغة في بيان الشافعي:

وضع الخليل أوزانه وأسس لعلم العروض. قانون الشعر العربي، وجمع اللغة على أساس نسقي، وقد عاصره الشافعي في شبابه، واستوحى مشروعه من عمل الخليل وسيبويه، فتأثير منهج هؤلاء في رسالة الشافعي لا يمكن تجاهله شكلا ومضمونا.

وبعد تقنين البيان العربي ألفاظا وأوزانا من قبل الخليل، قننه سيبويه إعرابا وتصريفا، وجاء الشافعي ليقننه على مستوى المبنى من جهة النحو، وعلى مستوى المبنى من جهة معاجم اللغة. كما استفاد الشافعي من الطب والتنجيم. اللذين يقال أنه كان على معرفة بهما في ميله إلى فرض النظام في كل شيء، فعمل على تحديد الأصول وتقنين الرأي، فأنشأ علم أصول الفقه، وهو يدين بالشيء الكثير لعلماء اللغة والنحو الذين احتك بهم، وناظرهم أيام شبابه، وكهولته، وكان شاهدا على إحكام النسق اللغوي على أيدي الخليل وسيبويه.[2]

2.2.2. مفهوم البيان عند الشافعي:

[1]- يُنْظَر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي نقد العقل العربي2، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط9، 2009م. ص:14

[2]- يُنْظَر: محمد عابد الجابري، ص ص: 102-103

يُعَدُّ الشافعي واضع اللبنات الأولى لعلم البيان، حيث تناول القواعد الكلية في كتابه الرسالة، والتي تعد أساس النظرية البيانية. هذا الكتاب الذي أنتجته أنساق مختلفة؛ علمية وفكرية وحتى سياسية واجتماعية، فكان البيان عنده "اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع. وأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها. ممن نزل القرآن بلسانه. متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض. مختلفة عند من يجهل لسان العرب."[1]

كان البيان قبل الشافعي يعني الوضوح، فالبيان لغة " ما بُيِّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها، وأن الشيء إذا اتضح فهو بَيِّنْ."[2] أما مفهومه عنده فهو اصطلاحي، فلم يعد البيان يعني الوضح والإفصاح فقط. بل أصبح اسما جامعا. أي مفهوما مجردا يتمتع بقوة المفهوم يحوي عالما من الأوامر والنواهي. أي أفكار علمية ممنهجة.[3]

لقد عمد الشافعي إلى تقسيم البيان إلى درجات خمس:

أولا: بيان لايحتاج إلى بيان

ثانيا: بيان في بعضه إجمال

ثالثا: بيان ورد له في صورة مجمل

رابعا: بيان السنة

خامسا: بيان الاجتهاد

واستخلص بعد ذلك من هذه الدرجات. ثلاثة أصول تتمثل في: الكتاب، والسنة، والقياس، ثم أضاف الإجماع كأصل رابع.[4]

وهكذا كانت نظرية الشافعي التي أسسها على جملة من القواعد لتفسير الخطاب القرآني التي تبناها علماء النحو والبلاغة، وحتى المتكلمين بعد أن عمموها، وأصبحت قوانين عامة لتفسير البيان العربي ككل. "... إن القواعد التي وضعها صاحب الرسالة. تظل مع ذلك

---

[1] - محمد بن إدريس الإمام الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاكر البابي الحلبي، القاهرة، 1940م، ص: 21

[2] - ابن منظور، لسان العرب، مادة بَيِّنَ، تح: عامر أحمد جهور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م. ص:475

[3] - يُنْظَر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 22

[4] - يُنْظَر: محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص:23

بمثابة الأساس والهيكل العام لهذا العلم المنهجي. إن القواعد التي وضعها الشافعي لا تقل أهمية بالنسبة لتكوين العقل العربي الإسلامي. عن قواعد المنهج التي وضعها ديكارت بالنسبة لتكوين الفكر الفرنسي خاصة، والعقلانية الأروبية الحديثة عامة ..."[1]

لقد أراد الشافعي من البيان الكيفية والطريقة التي يتم بها استنباط الحكم الشرعي من القرآن الكريم والسنية النبوية، فالمعنى هنا لا يكون على درجة متساوية عنده. بل هو مراتب غير متساوية وبعضها أبين من بعض، وبعضها لا يتأتى بالفكر والتفكر، وبعضها لا يحتاج إلى ذلك، وفي رسالته قسم البيان إلى خمسة أصناف

أ- الزيادة في المعنى

ب- البيان للخبر واحتمال ما أكثر منه

ت- اختلاف السنن واتفاقها

ث- الفرائض المنصوصة من كتاب الله

ج- القياس.[2]

النظرية البيانية عند الشافعي ذات صلة بالقرآن الكريم، وذلك من خلال الآيات والسور التي جاء فيها كل البيان، واستنبط منها كل الأحكام، والملاحظ أن الأصل في هذا التحليل الذي وضعه الشافعي مرده إلى أصلين أساسيين؛ أولهما النص الذي يضم فرعي القرآن والسنة، وثانيهما الاجتهاد؛ فالأول بيان بنص ظاهر قطعي الدلالة، والثاني بيان يحتاج إلى بيان أول لوروده.[3]

3.2.2. صلة علم الأصول بعلم البيان العربي:

أثبتت رسالة الشافعي أن العلمين في غاية التداخل، فالخبر والإنشاء عموما من علم المعاني وهما موضوع غالب الأصول. وكلما يتكلم فيه الأصولي من كون الأمر للوجوب، والنهي

[1] - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 100

[2] - يُنْظَر: الشافعي، الرسالة، ص ص: 21-25

[3] - يُنْظَر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 23

للتحريم، ومسائل الإخبار والعموم والخصوص والإطلاق... كلها ترجع إلى علم موضوع علم المعاني، وماينفرد به أصول الفقه هو كلام الشارع عن غيره. إلا الحكم الشرعي والقياس.[1]

وتمحور بحث الأصوليين في البلاغة؛ لأن غرضهم هو التوسل بالدراسات البلاغية والنحوية إلى المعنى والكشف عنه. دون التعرض لجمالية النص. هاته الجمالية التي اتخذوا منها قرائن تفيد في حكمهم النهائي على المسائل الفقهية.[2]

ويرى الجابري أن الأبحاث البيانية انقسمت منذ قيامها إلى قسمين؛ قسم يُعْنَى بقوانين تفسير الخطاب، وقسم يُعْنَى بشروط إنتاج الخطاب.[3]

القسم الأول هو الذي تطرقنا له في جزئية الشافعي، والقسم الثاني سنتعرف عليه مع نظرية البيان عند الجاحظ. وعليه يمكن القول أن علماء اللغة والنحو كشفوا عن الكثير من خصائص التعبير البياني في الكتاب المنزل. لكنهم لم يولوا أهمية إلى وضع قوانين أو نظام لتفسير هذا الخطاب القرآني إلى أن جاء الشافعي وقفز معه النظام المعرفي البياني قفزة نوعية؛ وذلك لمعرفته العميقة والدقيقة بالأساليب التعبيرية للغة القرآن الكريم. كما ساعده اطلاعه على مجادلات الفرق الكلامية التي أفرزها عصره. لاستخلاص واستنباط المضامين التشريعية من القرآن إلى جانب اهتمامه بالبيان والبلاغة.[4]

ولهذه الأسباب التي ذكرناها استحق الشافعي كما يقول الجابري أن يكون المشروع الأكبر للعقل العربي.

3.2. النظرية البيانية عند الجاحظ:

1.3.2. انطلاق الجاحظ من اجتهادات الأصوليين:

يُرَجّح الكثير من الدارسين أن الجاحظ تأثر بعلماء الفقه والأصول، وهو يعاين مبحث البيان حيث أن مفهومه عنده في بدايته لم يخرج عن كونه مبحثا أصوليا، فهو

---

[1]-يُنْظَر: السبكي بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح، تح: عبد الرحمان هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003م، 53/1

[2]- يُنْظَر: أسامة عبد العزيز جابلله، مفهوم البيان والدلالة بين البلاغة وأصول الفقه مقارنة تحليلية. كلية الآداب، مصر،دت، ص:23

[3]- يُنْظَر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 20

[4]- يُنْظَر: محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص: 22

الدليل الذي يبين الحكم، وهذا الدليل هو النص اللغوي القرآني، وكان هذا هو المسار الطبيعي في ضوء ما وصف به الله عز وجل كتابه العزيز بأنه﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ**﴾.[آل عمران. 138]. وأنه جاء ﴿**تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾. [سورة النحل. 89]

وبعدها أخذ المصطلح طريقه إلى التطور والاتساع. ليشمل الأفعال والإشارات الذي عدهم الجاحظ من طرق البيان.[1]

وتأثر الجاحظ بالنص القرآني باعتباره الدليل والمسلك للتعرف على المعاني كان واضحا. حيث انتبه للأصول وهو يحاول وضع القوانين(الأصول) وتأثر في الوقت نفسه بالمفهوم الكلامي الذي يجعل من الكون الدليل على وحدانية الله ووجوده، وقدرته. وهي دلالة الأثر على المؤثر.[2]

فكما أَثَّرَ علماء النحو واللغة والكلام في بيان الشافعي. أَثَّرَ الأصوليون والمتكلمون في بيان الجاحظ. ليتأكد لنا مرة أخرى ان الحقل المعرفي، أو النسق البياني العربي أنتجته علوم عربية عدة.

وهذه نقطة الاختلاف بين وسائل البيان عند الجاحظ، ووسائله عند المتأخرين. النظرية البيانية عنده لم تقتصر على اللغة المنطوقة، ولا المكتوبة فحسب. بل تعدتهما إلى الإشارة والعقد، وهذا ما يدخل ضمن كلام المتكلمين عن البيان. وأن منهم ما يكون للكلام والفعل والإشارة والرمز.[3]

إن العقلية العربية طالما وجدت إشباعا في تداخل حقولها المعرفية. لأنساقها المختلفة، فالنقد العربي القديم لم يُفْهَم إلا ضمن دراسات ربما تختلف عنه. لكنها ألقت ضوءا كبيرا عليه؛ مثل علم النحو والفقه. وحتى التفسير.[4]

ومنه يمكن القول أن مباحث علم البيان، مباحث معرفية.لا تقتصر على المجال النقدي، وفهمها في النقد لا يتأتى إلا بفهمها في حقول مجاورة.

---

[1]- يُنْظَر: عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، مكتبة الآداب. القاهرة، ط3، 2006م. ص:97

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999م. ص: 195

[3]- يُنْظَر: عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلالاغي، ص: 68

[4]- يُنْظَر: مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، دت، ص:08

2.3.2. مفهوم البيان عند الجاحظ:

يُعَرِّفُ الجاحظ البيان بأنه " اسم جامع لكل شيء. كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير. حتى يصفي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ماكان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليهما يجري القائل والسامع. إنما هو الفهم والإفهام، فبأي بشيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع."[1]

الجاحظ جعل من البيان وسيلة وليس غاية في حد ذاته. فهو طريقة للفهم والتعبير على اختلاف الكيفية التي يعبر بها الناس فيما بينهم. لإيصال المعنى بطرق ووسائل متعددة وعلى مراحل ومراتب، فالحاجة هي الداعي إلى البيان لذلك يعد الجاحظ من السابقين إلى ربط ملكة البيان بالحاجة النفسية للمتكلم، وذلك بعد أن أدرك دلالة الألفاظ تقوم على المعنى الذي نحسه لا على النص المجرد.

والملاحظ أن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين. أولى الأهمية القصوى للفظ والمعنى؛ باعتبارهما أهم وسائل البيان عنده، فكانت دراسته علمية وانطباعية في الآن نفسه. ولم يلتفت للوسائل الأخرى كالكتابة والخط.[2]

كما أنه اهتم بشروط القول، وما يتطلبه بهندسة بيانية وتصميم منطقي. لكنه مضمر، وانطلق بذلك من الشروط التي وضعها للإرسال ووصولا إلى ما يتطلبه الحصول على الاستجابة المرجوة.[3]

وذكر الجاحظ لمسألة البيان لم تقتصر على كتاب البيان والتبيين فقط. بل اهتم بالأساليب البيانية في الخطاب القرآني وألف في ذلك كتابين هما:نظم القرآن، وكتاب: آي القرآن، وكتاب: الحيوان. الذي لا يكاد يخلو من بعض الإشارات البيانية.

---

[1] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين،تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجانجي، القاهرة، ط7، 1998م، 76/1

[2] - يُنْظَر: إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1984م، ص: 133

[3] - يُنْظَر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 26

3.3.2. وظيفة البيان عند الجاحظ:

لقد سيطر المعنى اللغوي للبيان على فكر الجاحظ. حيث أولى دلالة اللغة مكانة كبيرة. وه>ا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه يعتبرهما أكمل أنواع الدلالات فيها. فبها تبلغ مقاصد وحاجة الناس، فكانت بمنزلة الضرورة، وانتصاره للبيان اللغوي جعله يصرف جهدا كبيرا في المقابلة بين النطق والصوت في مواضع متفرقة من كتبه. كما بذل جهدا في الاحتجاج لفضل الأول على الثاني.[1]

البيان عند الجاظ لم يكن كلمة مفردة منفردة. بل منظومة معرفية ونسق فكري لم يجري معناه عنده على نسق واحد، فربطه بالعلامة اللغوية بوصفها الأداة المكتملة المتطورة. التي تمكن مستخدميها من التعبير عن حاجاتهم. وما تختلج به نفوسهم كما يدل في بعض السياقات على كل وسائل التعبير الممكنة بين البشر والكيفية التي يتوصلون بها إلى المعنى. وهذا معنى عام. لا يشمل اللغة وحدها بل يتعداها إلى المجال العلاماتي. وهو العلم الذي أصبح اليوم علما قائما بذاته. ألا وهو علم العلامات.

وهكذا تدرج مفهوم البيان في نسق فكري. من العلامة اللغوية سواء بمستواها العادي أو البلاغي. إلى العلامة والإشارة.[2]

وهذا مايميز النظرية البيانية لدى الجاحظ من تكامل وتداخل بين الأنساق المعرفية. وما يربطها من علاقات؛ وهذا الفعل اللغوي عند جالحظ لا يقوم إلا على مجموعة من العناصر جعلها ثلاث، وهي: المتكلم والسامع والكلام. وهي تمثل مجتمعة الحد الأدنى للبيان اللغوي، وتفطنه إلى هذا أمر ذو بال حتى وإن كان رأي بعض الدارسين تأثر بالمنطق الأرسطي. فهذا لا ينقص من قيمة ما اتى به في ثنايا آثاره. وما تنبه إليه الجاحظ أثبتته النظريات الحديثة؛ كنظرية التواصل عند جاكبسون كما انه اهتدى في وقت مبكر إلى ما يحف بظاهرة الكلام من ملابسات. ويعده حماد الصمود تقف في تراثه على نظرية متكاملة تجعل من الكلام المظهر الفعلي العملي للغة المجردة.[3]

---

[1] - يُنْظَر: حماد صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 159

[2] - يُنْظَر: حماد صمود، المرجع السابق، ص: 143

[3] - يُنْظَر: المرجع نفسه، ص ص: 166-167-168

وتتوالد الوظائف وتتناسل في فكر الجاحظ في نسق متكامل. فليس من الصعب إثبات أن وظيفة الفهم والإفهام أوالبيان والتبيين هي الوظيفة المسيطرة على تفكيره البياني. لذلك رادف بين المفهومين في أشد كتبه ذات الصلة بالمباحث اللغوية والبيانية. والبيان في مفهومه العام يقتصر على أداء الوظيفة وقضاء الحاجة وتحقيق التواصل لا يتم إلا من وجهة الإفهام والتفهم. وهذا المعنى كان بينا في قول الجاحظ:" البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير. حتى يفضي السامع إلى حقيقته ..." فوظيفة اللغة الأساسية عنده والقارة هي الفهم والإفهام، فهي المدخل والطريق للوظائف الأخرى التي لا تعدو أن تكون نسقا متطورا للوظيفة الأولى. التي تؤدي شروط الفصاحة وقواعد الإبانة.[1]

كما أن إشارة الجاحظ لكلمة البيان في عنوان كتابه دلالة على تلك النصوص الإبداعية، وإلى النظر التأويلي الناقد لتلك النصوص، فجاء الكتاب جامعا بين النص (البيان) ونقده(التبيين) ورأس العمل النقدي تبيين النص وتفسيره ومقاربته، وهذا لإضاءة مكامن النص والاستعانة بالسياق الخارجي الذي أولى له أهمية قصوى للوصل إلى النسق المعرفي الذي بنى عليه نظريته البيانية.

ولم يقف الجاحظ عند وظيفة الإفهام . "لكنه تدرج في كتابه البيان والتبيين إلى التأثير والإقناع حسب المقامات ..."، ولهذا كان تقديم صحيفة بشر بن المعتمر حدثا رمزيا حدد إستراتيجية الكتاب كما حددها تعريف البيان ومقايضته البلاغة ثم مقايضة البلاغة بالخطابة، وجعل بلاغة الخطابة في مراعاة المقامات وأحوال المخاطبين، المشكل يكمن في أن كتاب البيان والتبيين لَمْ يُطوِّر كمشروع بل أخذ كقطع غيار وأفكار منفصلة عن بعضها ولَمْ يُلْتَفتْ إلى نسقه إلا في إطار نظرية المعرفة في قراءة ابن وهب في كتابه "البرهان في وجود البيان"[2]، ولو اهتم الدارسون حديثا لهذا الشتات المأثور عن الجاحظ لكانت هناك نظرية بيانية وبلاغية مكتملة الأركان تشهد على فُرادة فكر هذا الرجل وتَمكُّنِهِ فكُل ما كان مبثوثا في كتاباته جاء بطريقة أو أخرى في الدراسات اللسانية والتداولية وحتى الحجاجية الحديثة.

[1] - يُنْظَر: المرجع نفسه، ص ص: 177-182

[2] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، ص: 33-34

4.3.2 إستراتيجية البيان عند الجاحظ:

يذهب محمد العمري، إلى أن كتاب البيان والتبيين لم يخرج عن ثلاثة محاور وكلها متعلقة بدراسته للبيان وهي:

1- وظيفة البيان وقيمته وذلك من خلال تعريفه للفهم والإفهام وقيمة البيان وذلك في إظهاره لمساوئ العي حتى قبل أن يعرف البيان ودفاعه عن الخطابة.

2- العملية البيانية وأدواتها وحديثه عن اللغة [النص + المشافهة] والإشارة والنصبة والخط والعقد.

3- البيان العربي وذلك من خلال دفاعه عن البيان العربي وتبرئته من تهم المتزمتين ومواجهة قدح الشعوبية وتأريخه للبيان العربي من خلال سرده لأخبار الخطباء.[1]

ومن خلال تحليله لإستراتيجية كتاب "البيان والتبيين" يقول محمد العمري "أنّ الكتاب محاولة لوضع نظرية بلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي الشفوي وهامشها كل الوسائل الشفوية والرمزية وأساس الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين".[2]

البيان حسب العمري عند الجاحظ هو بلاغة إقناع ركيزتها الأساسية هو الجانب الشفوي الذي تدعمه جوانب مساندة كالإشارة والرمز وهذا ما أملته ظروف تاريخية وسياسية، فعصر الجاحظ عصر الصراع المذهبي والفكري إلى جانب أسلوب الإستطراد الذي ميز كتاباته في تلك الفترة، فالمعرفة المتاحة في عصره شعرية، ثم خطابية برغم أن العصر الأموي كان العصر الذهبي للخطابة العربية إلا أنها ظلت قمرا دائرا في فلك الشعر.[3]

ورغم أن مفهوم البيان عند الجاحظ كان مفهوما جامعا، بدأ مشروعه في إقامة نظرية بيانية يتراجع في صفحات كتابه فقايض البيان بالبلاغة ثم قايضها هي الأخرى بالخطابة وبالتالي خنقت البلاغة مشروعه البياني باعتباره نظرية للمعرفة، فلم يبق منه غير الخطة الأولى.[4]

---

[1] ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999، ص: 193.

[2] محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس، المغرب، العدد 05، خريف-شتاء 1991.

[3] ينظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص: 114.

[4] ينظر، نفسه، ص 144.

وبهذا الكلام الذي يقول العمري هنا وكأنه يناقض أو ينفي ما قاله قبل هذا والذي ذكرناه هنا بأن إستراتيجية الجاحظ في كتابه هي محاولة لوضع نظرية متكاملة في بلاغة الإقناع والتي كان منطلقها من دراسته للبيان من خلال المحاولة الكبرى التي قام عليها وذكرها العمري بالتفصيل.

5.3.2 سيمياء الجاحظ قراءة نسقية لبيانه:

بنى الجاحظ مفهومه للبيان كما أسلفنا الذكر منطلقا من خلفية فلسفية عقائدية فكان مبتدأ تفكيره في القضية يتأسس على نظرة دينية رمزية فارتبط بغاية التعبير عن خفايا الحاجات والمعاني وهتك الحجاب وتأويل الرّمز وكانت المخلوقات بمنزلة الدال للمدلول وهو حكمة العالم والكون.[1]

وإذا أردنا أن نرصد القراءة النسقية لبيان الجاحظ علينا أن ندرك مقصده فالبيان بمفهومه لا يتم إلا "بين الأجناس المتشابهة بعلامات يفهمون بها بعضهم عن بعض ويرفعون بها عنهم مؤونةُ الجهد في استكناه المعاني الكامنة التي تبقى ما لم تحط بها العلامة، مستعصية لا تتيسر إلا بخالص الجهد والمشقة".[2]

وهذه دعوة صارخة من الجاحظ لاعتبارا البيان مبحثا في المعرفة وتحصيله لا يتم إلا بالوصول إلى الغاية ذاتها من البيان وهي الإفهام والإبلاغ، والأساس الذي بنى عليه الجاحظ فكره في تصوره للعلامة كان أساس ديني عقدي مبني على معرفة العالم الذي خلقه الله عزّ وجلّ، وهذا لا يتأتّى إلّا باستعمال العقل.

كانت رؤية الجاحظ للكون رؤية بيانية فالطبيعة والإنسان والحيوان، وكل هاته المخلوقات الإلهية يربطها عامل واحد وهو الإشارة التي تعبر بها عن نفسها، وبهذا جعل الإشارة لغة موازية للغة الكلمة غير أنّ لها نظامها الخاص المُتواضَع عليه اجتماعيا، وبالتالي هي لغة قائمة بذاتها مستقلة تمام الإستقلال عن اللغة الطبيعية، كما يسميها علماء اللغة المعاصرين.[3]

---

[1] ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص ص: 143-145.

[2] ينظر: نفسه، ص: 146.

[3] ينظر: إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984، ص ص: 120-125.

والملاحظ أن الجاحظ فغي كتابه البيان والتبيين أولى الأهمية القصوى للّفظ والمعنى باعتبارهما أهم وسائل البيان عنده، فكانت دراسته علمية وانطباعية في الآن نفسه ولم يلتفت للوسائل الأخرى كالكتابة والخط ومنه فوسائل البيان عنده كلها مشبهة ببيان اللسان، فالكلام هو البيان الحقيقي ووسائل التواصل الأخرى ما هي إلا شبيهة به وتابعة له.[1]

ويصح القول أن الجاحظ أسس لسمياء خارجة عن حياة الأفراد والمجتمع وهي قريبة من سيمياء "بيرس" لأنها تحمل ذات الطابع الفلسفي التأمّلي، ومنه تكون بعيدة عن سيمياء "بارت" والتي أسسها سوسير.[2]

لكن علينا ونحن نحاول قراءة آثار الجاحظ أو غيره من البلاغيين والنقاد القدامى، أن تكون قراءتنا تطرح إشكالات معرفية والنظر إليها بمنظور أنها مشاريع بلاغية نقدية نسقية تقرأ في نطاقها المعرفي العام، وباعتبارها مبحثا في المعرفة وليس مجرد آثار أدبية تاريخية وذلك لإدراك أفقها المعرفي و"لا شك أن القارئ الحديث الذي يحاول أن يأخذ وجهة نظر منسجمة عن البلاغة العربية سَيُصَابُ بالدوار أمام الآراء المتضاربة التي صدرت في حق البلاغيين الكبار الذين ساهموا في عملية تشييد صرح البلاغة مثل الجاحظ (...) فأنت تجد الرأي وضده يُنسبانِ للبلاغي الواحد، دون اهتمام بتفسير ذلك وترى الحكم يطلق إطلاقا وهو عند صاحبه مقيد أو معدّل أو مَنسوخ أصلا، وهذا ناتج كله في نظرنا إلى غياب القراءة النسقية المستندة إلى الأسئلة والخلفيات، والإخراجات التي حكمت أعمال هؤلاء الأعلام".[3]

لذا ينبغي أن نكون على وعي ونحن نتدارس أعمال هؤلاء ونرصد التحول الذي حصل في الفكر العربي خاصة والإنساني عامة لمقاربة تلك الأعمال مقاربة منهجية وعلمية تتخذ من العلوم الدقيقة نموذجا والتي صارت هي التي تقترب من العلوم الإنسانية، وحتى لا تفتح أبواب التأويل على مصراعيه بدون ضوابط ولا حدود، ذلك التأويل والقراءة الذي جعل من

[1] ينظر: إدريس بلمليح، المرجع السابق، ص ص: 133-134.

[2] ينظر: نفسه، ص 122.

[3] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 127.

الجرجاني أبا للبنيوية ومن الجاحظ أيا للتداولية في الوقت نفسه لا يعني هذا نفي الرأي الذي يرى أن لهؤلاء القدامى إسهام كبير في الفكر الإنساني.[1]

وعليه علينا تغيير نظرتنا للتراث وموقفنا منه باعتباره سلطة مرجعية والتعامل معه باعتباره منتجا معرفيا يحتاج إلى وقفة معرفية.

[1] محمد العمري، المرجع السابق، ص ص: 244-245.

الشكل: خلاصة تركيبية

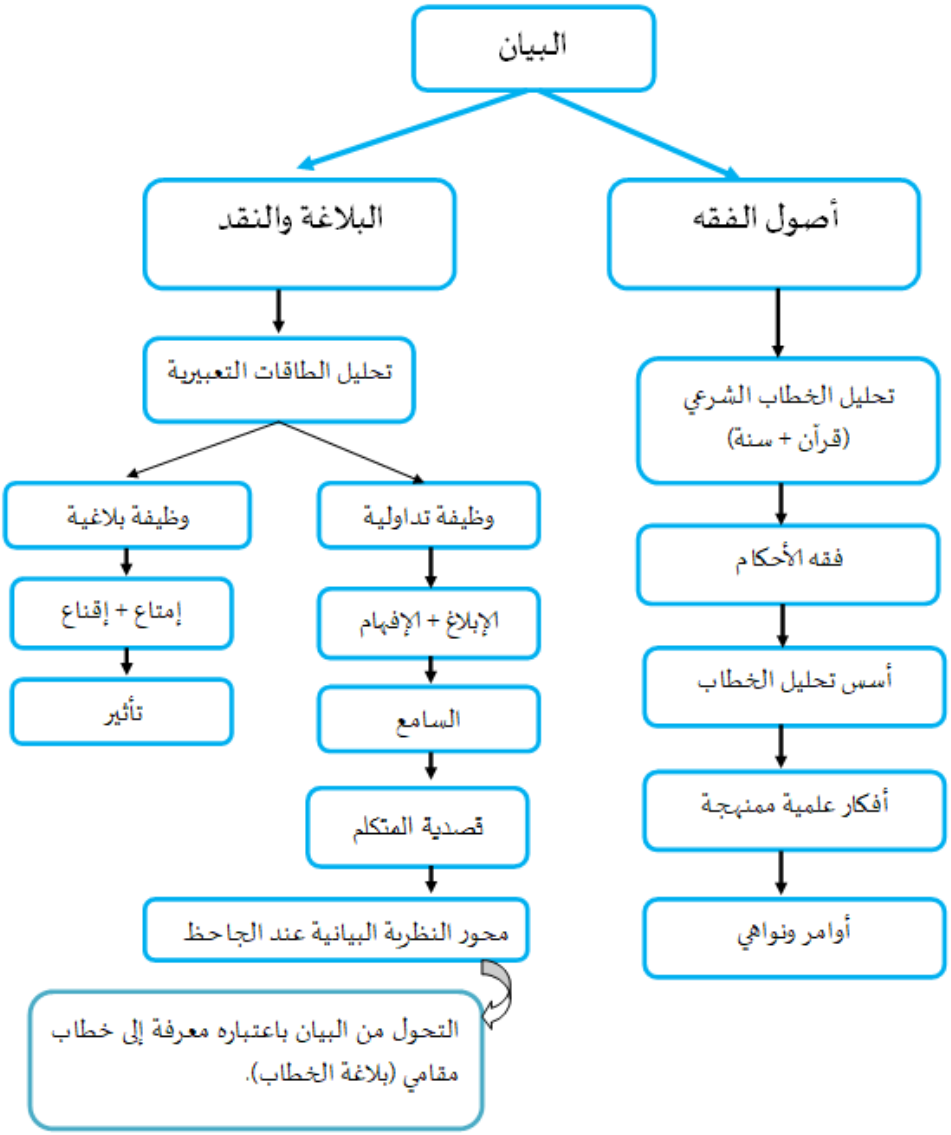

4. خاتمة:

أسهمت النظرية البيانية في بناء الخطاب العربي شكلا وضمونا وهو خطاب بلاغي في الوجهين الأصولي والبلاغي، كما أنه تلون بالسياق القرآني والسنة النبوية بداية مهتما بتحليل الخطاب الشرعي فوضع أسسا لتحليله وفق نسق فكري علمي ممنهج للوصول إلى كيفية استنباط الأحكام، وكانت النقلة الثانية مع الجاحظ، الذي اهتمّ بشروط إنتاج الخطاب، بتحليل الطاقات التعبيرية متلونا بالسياق الإجتماعي والعقائدي الديني، فكانت محور نظريته في البيان هو قصدية المتكلم وهي الإبلاغ والإفهام، في شقيها التداولي والبلاغي.

5. قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

المصادر

- ✓ أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين،تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجانجي، القاهرة، ط7، 1998م.
- ✓ محمد بن إدريس الإمام الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاكر البابي الحلبي، القاهرة، 1940م.

✓ المراجع

- ✓ ابن منظور، لسان العرب، مادة بَيّنَ، تح: عامر أحمد جهور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م .
- ✓ إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1984م.
- ✓ أسامة عبد العزيز جاب لله، مفهوم البيان والدلالة بين البلاغة وأصول الفقه مقارنة تحليلية. كلية الآداب، مصر،دت.
- ✓ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط3، 2010م.

✓ السبكي بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح، تح: عبد الرحمان هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003م.

✓ شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط9، 1965م.

✓ عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، مكتبة الآداب. القاهرة، ط3، 2006م.

✓ عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001م.

✓ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999

✓ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999م .

✓ محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس، المغرب، العدد 05، خريف-شتاء 1991

✓ محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1

✓ محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي نقد العقل العربي2، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط9، 2009م.

✓ محمد نايل أحمد، البلاغة بين عهدين في ظلال الذوق الأزلي وتحت سلطان العلم النظري، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1994م.

✓ مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس،